جامعة دمشق – كلية الآداب – قسم الفلسفة

سنة رابعة

محاضرة فكر عربي معاصر

المحاضرة ٤ + ٥

تاريخ ٢٠٢٠/٤/١٥

تاريخ ٢٠٢٠/٤/٢٢

عنوان المحاضرة: العرب على الخريطة الدولية

أ.د. فارس النداف

2 ف

((العرب على الخريطة الدولية))

عناصر الفصل

مقدمة

أولاً: في التجزئة

ثانياً: في عدد السكان المقارن

ثالثاً: الإنتاج المعرفي والعلمي

رابعاً: في العملية الاقتصاديَّة

خامساً: في الموقع السياسي

خاتمة

إنَ الأهميَة القصوى لتوسُّط الوطن العربيَ العالم ليست هـي المعيار الوحيد لموقع العرب على الخريطة العالميَّة، وإنما هناك الكـثير من نقاط الأهميَة على مختلف الأصعدة تجعل هذا الوطن على درجة من الخطورة والأهميَة، ولكن مع ذلك فإنَّ الفاعليَّة العربيَّـة علـى مختلف الأصعدة هي في الحضيض.

مقدّمة

من البداهة بمكان أنّنا لن نتحدَّث عن موقع العرب على الخريطة الدُّوليَّة مـن وجهة النَّظر الجغرافيَّة، فتلك مسألةٌ باتت بحكم المعرفةِ الشَّائعة الَّتي لا يقلُّ فِطنةً فيهـا العاميُّ عن المختصِّ. ولكن لا بأس من التَّوطئة بذلك مدخلاً لتحديد موقع العـرب على خريطة الفعل الحضاري الدُّولي بمختلف مقوِّماته وتشعُّباته.

إنَّ النَّظريَّة القديمة في توسُّط العالم العربي العالَمَ لم تفقد مصداقيتها مع التَّغيُّرات الهائلة على الصَّعيد العالمي على صعيد الثَّورة التَّقانيَّة وتحوُّل العالم إلى قريـةٍ صـغيرةٍ ضاقت أمامها مختلف المسافات وانحسرت لتغدو كلُّها مسافاتٍ قصيرةً. بل ظلَّت هذه النَّظريَّة صحيحةً على الرَّغم من كلِّ الاختراعات التي حطَّمت الحـواجز والحـدود والمسافات الطَّويلة عَبْرَ الطُّرق البريَّة والبحريَّة والجويَّة، لأنَّ كلَّ هذه الطُّرق تمرُّ عَبْـرَ العالم العربيِّ أو أنَّ الوطن العربيَّ يختصرها اختصاراتٍ كبيرةً جدًّا. ناهيك فوق ذلـك كلِّه عن المضمون الذي يحتويه هذا الوطن والثَّروات الَّتي يتمتَّع بها... وهـي كلُّهـا حقائق بعيدةٌ عن التَّعصُّب والتَّفكير الأيديولوجي. وهذا ما يُفسِّر ويكشف في الوقت ذاته عن التَّحدِّيات الَّتي تحيق بالعالم العربي.

الحقيقة الأولى الَّتي لا يمكن نكرانها هي أنَّ جملةً من التَّحديَّات تحيط بـالوطن العربي؛ تحيط به لأنَّهُ أمَّةٌ مثل أيِّ أمَّةٍ يمكن أن يكون لها طموحاتٌ معيَّنةٌ، وتحيط بـه كونه على ما هو عليه من موقعٍ جغرافيٍّ، وتحيط به لأنَّ مضمونه التَّاريخيَّ والاجتماعيَّ والسِّياسيَّ هو الأمَّة العربيَّة ذاتها بما تحمله هذه الأمَّةُ العربيَّةُ مـن قـيمٍ وإمكانـاتٍ

وقدراتٍ وطموحاتٍ وآمالٍ... وتحيط به لأنّهُ أيضاً يحتوي فوق الأرض وتحتها على ثرواتٍ إن لم يُحْسَد عليها فإنّها تعطيه الكثير من المقوّمات والقُدْرَات وأوراق الحسم في سيرورة الفعل الحضاري على الصّعيد الدُّولي المعاصر.

هذه التّحدّيات تلعب دوراً كبيراً وحاسماً في تحديد موقع العرب على خريطة الفعل الحضاري؛ السّياسي والعلمي والمعرفي... ولكن على الرَّغْم من أنّ هذه التّحدّيات تلعب الدّور الكبير في رسم معالم موقع العرب على هذه الخريطة فإنّهُ من الخطأ والتّجنّي في الوقت ذاته أن نلقي تبعات التّموضع في هذا الموضع كلّها على هذه التّحدّيات الخارجيّة، ذلك أنّ الدّاخل ذاته يحمل الكثير جدًّا أيضاً من مسؤوليّة تموضعنا في الموضع الذي نحن فيه على خريطة الفعل الحضاري الدُّولي بمختلف مستوياته.

يبدو من سياق الكلام أنّ موقع العرب على الخريطة الدُّوليّة ليس موقعاً محموداً ولا مقبولاً، وهذه هي حقيقة الأمر. ويمكن أن نبيّن ذلك من خلال مجموعةٍ من المؤشّرات هي التّالية:

أولاً: في التجزئة

إنّ الحقيقة الأولى التي لا يجوز إلا أن ننطلق منها من دون أن تكون بالضّرورة أساساً لمصداقيّة ما بعدها، هي أنّ العرب أمّة واحدةٌ. لا شكّ في أنّهُ سيكون هناك من يرفض هذه الحقيقة، ولا شكّ في وجود من يعترض عليها، ومن يعمل ضدّها، ولكن على الرَّغْم من ذلك كلّه فإنّ حقيقة أنّ العرب أمّةٌ واحدةٌ أمرٌ ترفده كلُّ الحقائق وتؤيّده كلُّ الأدلّة والبراهين. والإيمان بقوّة هذه الأمّة إذا كانت موحّدةً هو الذي حَرَّضَ القوى المتضرّرة من هذه الوحدة على العمل على تجزئتها.

تجزئة الأمّة العربيّة هي إذن التّحقّق الواقعيُّ لإرادة المتضرّرين من هذه الوحدة وليست إرادة أبنائها على الإطلاق وإن وجد من أبنائها من يعمل ضدّها. لقد أدركت أوروبا هذه الحقيقة إدراكاً مباشراً في القرن التّاسع عشر عندما كانت تخطّط

لانهيار الدَّولة العثمانيَّة، فوجدت من أنَّ من سيخلف الدَّولةَ العثمانيَّةَ دولةٌ عربيَّةٌ واحدةٌ تمتدُّ من المحيط إلى الخليج، وتشكِّلُ بوحدتها قوَّةً تَحُدُّ من الامتداد الأوربي والقوَّة الاستعماريَّة لهذه الدُّول، وتبعتها في ذلك مباشرة الولايات المتحدة الأمريكيَّة الوريث الشَّرعي للإمبراطوريَّة الأوروبيَّة، تماماً كما كانت روما الوريث الشَّرعي للإمبراطوريَّة اليونانيَّة.

ولا عجب لذلك أن تعقد المؤتمرات والنَّدوات والمشاورات للتَّعامل مع هذه الأمَّة. ولعَلَّ من أبرز هذه المؤتمرات المؤتمر الذي أشرف عليه وتابعه رئيس الحكومة البريطانيَّة **كامبل بينرمان** وَحَمَلَ اسمه، وانعقد هذا المؤتمر في لندن ما بَيْنَ ١٩٠٥م و١٩٠٧م لدراسة وضع الوطن العربي وآفاقه المستقبليَّة وكيفيَّة التَّعامل معه. وبعد سنتين من الدِّراسة المفصَّلة، والمناقشات التي شارك فيها كبار أعلام الفكر الأوربي وعلماؤه في مختلف الميادين، والمسؤولون السِّياسيون والاقتصاديون، خرج المؤتمرون بقائمةٍ طويلةٍ تُبَيِّنُ «كيفيَّة تمزيق الوطن العربي جغرافيًّا، وإضعافه اقتصاديًّا، وعلميًّا وثقافيًّا، وتمزيق وحدته بشـــريًّا، لأنَّها رأت في وحدته وقوَّته نفياً لوجود الإمبراطوريات الاستعماريَّة. وقد حدَّد المؤتمر مجموعةً من الوسائل والأساليب المختلفة التي يجب اتِّباعها والعمل على تنفيذها من قبل الدُّول الاستعماريَّة مجتمعةً، وهي إقامة حاجزٍ بشريٍّ قويٍّ وغريبٍ على الجسر البريِّ الذي يربط أوروبا بالعالم القديم، ويربطها معاً بالبحر الأبيض المتوسط، يجب أن تقوم في هذه المنطقة، وعلى مقربةٍ من قناة السُّويس، قوَّةٌ عدُوَّةٌ لشعب المنطقة، وأن تكون صديقةً للدُّول الأوربيَّة»[٣٥].

وقبل ذلك بسنواتٍ ثلاث فقط ظَهَرَ لأوَّل مرَّةٍ اصطلاح الشَّرق الأوسط كما بَيَّنَ **سمير مرقص** في كتابه الحماية والعقاب، وكان ذلك على لسان أحد ضُبَّاط البحريَّة الأمريكيَّة عام ١٩٠٢م الذي «أكَّدَ توجُّهاً سياسيًّا يستهدف تغييب حقيقة

---

٣٥ ــ الدكتور ماجد شدود: **الاستراتيجية** ــ ص٣٤٢. وانظر كذلك كتابنا: **أفيار أسطورة السلام** ــ ص١٠٢. وارجع إلى مزيد من التَّفاصيل في فصل المعطيات التَّاريخية والدولية.

الوطن العربي بوصفه كتلة بشريَّة مميَّزة بثقافتها وعاداتها ووحدتها الجغرافيَّة بإضافة أطر أخرى إليها مثل تركيا وإيران (وإسرائيل لاحقاً) لجعل المنطقة لوحةً من الفسيفساء لا يجمع بينها رابطٌ، بما يرسِّخ الاستراتيجيا التي استهدفها الغرب بتدعيم كلّ ما يُفرِّق ويشتِّت لنسف أيِّ وحدةٍ سياسيَّةٍ أو أيِّ توجُّهات مشتركة»[٣٦].

وعلى هذا الأساس جاءت الاتفاقيَّة الإنجليزيَّة الفرنسيَّة **سان ــ ريمون** وبعدها اتفاقيَّة **سايكس– بيكو** المعدِّلة لها عام ١٩١٦م التي جزَّأت المشرق العربيَّ ووزَّعته إلى مناطق نفوذٍ بَيْنَ فرنسا وإنجلترة، وعلى إثرها جاء وعد **بلفور** في الثَّاني من تشرين الثَّاني عام ١٩١٧م تجسيداً لهذا المخطَّط.

هذه العقليَّة الغربيَّة في التَّعامل مع الأمَّة العربيَّة ظلَّت هي ذاتها منذ ذلك الحين وحَتَّى يومنا هذا، وبالكاد يمكن أن نجد رئيساً أمريكاً منذ تلك المرحلة لم يطرح صراحةً فكرة العداء للأمَّة العربيَّة، وإذا تتبعنا تصريحات القادة والأوربِّيين وخاصَّةً منهم الإنجليز والفرنسيين لوجدنا الكثير جدًّا ممَّا يكشف عن هذه الحقيقة، ومن ذلك على سبيل المثال ما كتبه الرَّئيس الأمريكيُّ **ريتشارد نيكسون** في كتابه: الفرصة السَّانحة، إذ قال: «ليس لنا في الشَّرق سوى النِّفط وإسرائيل. وهناك الأصوليُّون المسلمون الذين يحرِّكهم حقدهم الشَّديد.. حقدهم الشَّديد ضدَّ الغرب مصمِّمون على استرجاع الحضارة الإسلاميَّة السَّابقة عن طريق بعث الماضي ويهدفون إلى تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة وينادون بأنَّ الإسلام دينٌ ودولةٌ وعلى الرَّغم من أنَّهم ينظرون إلى الماضي فإنَّهُم يتَّخذون منه هدايةً للمستقبل فهم ليسوا محافظين ولكِنَّهُم ثوار...».

---

٣٦ ــ رياض أبو عوض: **سمير مرقص في كتابه الحماية والعقاب؛ الغرب والمسألة المدنيَّة في الشرق الأوسط (قراءة في المخطوطات الأوربيَّة والأمريكيَّة لتفتيت المنطقة** ــ جريدة الكفاح العربي ــ بيروت ــ عدد الخميس ١٢/١٠/٢٠٠٠م.

التَّجزئة إذن فُرضت على الوطن العربي فرضاً و لم تكن أبداً خياراً عربيًّا، وعلى الرَّغْم من محاولات تحذير القطريَّة التي نَشِبَتْ أظفارُها في المنطقة منذ تلك الفترة وحَتَّى اليوم لا يمكن القول إنَّ هذه التَّجزئة خيارٌ عربيٌّ فحَتَّى الحكام العرب أنفسهم الذين يحذّرون القطريَّة لا يجرؤون على إعلان ذلك بل تجدهم ملزمون أمام الجماهير بالإعلان الدَّائم عن التَّكامل العربيّ وضرورة هذا التَّكامل وأحياناً الوحدة...

هذه التَّجزئة فُرِضَتْ على الوطن العربيِّ فرضاً لتحجيم الفعل العربيِّ والتَّحكُّم به وضبطه وَفْقَ ما تقتضي مصالح الأقوياء (الدُّول الاستعماريَّة) ويتناسب معها في كلِّ مرحلةٍ زمنيَّةٍ، وبالفعل فقد حجَّمت هذه التَّجزئة قُدْرَةَ العرب على الفعل وردِّ الفعل والمبادرة والتَّخطيط حَتَّى ولو كانت هناك مستويات عالية من التَّعاون والتَّكامل بَيْنَ أقطار الوطن العربي، لأنَّ كلَّ ذلك سيدور في دوائر ضيِّقةٍ من المصالح والحاجات وإمكانات الفعل والتَّخطيط التي يمكن أن تتعارض أو لا تتوافق، ناهيك فوق ذلك كلّه عن أنَّ التَّجزئة ذاتها وَفْقَ ما خُطِّطَ لها قامت على أساسٍ من الصِّراع والتَّناقض وتضارب المصالح والاحتياجات والطُّموحات بَيْنَ الأقطار العربيَّة... وهذا ما تحقَّق واقعيًّا منذ بدء التَّجزئة وحَتَّى يومنا هذا، حَتَّى إنَّهُ من شبه المتعذَّر أن تجدَ علاقةً طيِّبةً أو حسنةً بَيْنَ قطرين عربيين دامت أكثر من سنةٍ تنتكس بعدها إلى التَّدهور ثُمَّ لتتحسن.. وهكذا دواليك...

هذه التَّجزئة إذن حجَّمت الفعل العربيَّ وَقُدْرَةَ العربِ على الفعل وساهمت إلى حدٍّ جدّ كبيرٍ في وضع العرب في الموقع الذي هم فيه على خريطة الفعل الحضاري الدُّولي بمختلف مستوياته وأبعاده، وتكاد تكون التَّجزئة من غير مبالغةٍ أسَّ التَّهميش الذي يعيشه العالم العربي وأساسه.

ثانياً: في عدد السكان المقارن

التَّأسيس الثَّاني لمعرفة موقع العرب على الخريطة الدُّوليَّة هو عدد السُّكان والمساحة الجغرافيَّة والثَّروات الَّتي يمتلكها العرب لتكون المقارنة مع الدُّول أو الأمم

الأخرى ذات دلالةٍ إحصائيَّةٍ علميَّةٍ وليست أرقاماً أو معطياتٍ خاليةً من المعنى أو الدَّلالة.

قد لا يكون عددُ السُّكَّان مؤشِّراً كافياً لاستنتاج الفعل والقدرة عليه لأنَّهُ لا توجد نظريَّة أو حتَّى فرضيَّة تقوم على أنَّ زيادة عدد السُّكَّان موجبٌ لزيادة الفعل والتَّصدر فيه على الأمم الأقلّ سكاناً، وإلاَّ لكان من المفترض أن تكون الصِّين دائماً هي الأولى في كلّ شيءٍ، أو رُبَّما الهند. ولكنَّ عدد السُّكان يقدِّم لنا بعض المؤشِّرات المهمَّة على هذا الصَّعيد.

يقترب عدد سكَّان الوطن العربيِّ اليوم من ٤٠٠ مليون نسمة، وهذا العدد يعادل تقريباً عدد سُكَّان دول الاتحاد الأوربيِّ قبل توسُّعه شرقاً، وهو مساوٍ تقريباً أيضاً لعدد سكان الولايات المتحدة الأمريكيَّة، كما يعادل نحو ربع عدد سكَّان الهند، وأكثر من ربع عدد سكَّان الصِّين.

هذه المئات الأربع من الملايين موزَّعةٌ على أقطار الوطن العربيِّ توزُّعاً متفاوت النِّسبة من العدد الكليِّ، وكان هذا التَّفاوت هائلاً ما بَيْنَ الدَّولة والأكبر والأصغر في عدد السُّكَّان فكان عدد سكَّان مصر ٦٨ مليوناً وهي الأكبر، وكان عدد سكَّان قطر وهي الأقل سكاناً في العالم العربي ٥٦٥ ألف نسمة أي ٠,٨% من عدد سكَّان مصر. فيما اقترب عدد سكَّان السُّودان من ٣٢ مليون نسمة، والجزائر من ٣٠ مليون نسمة، والعراق من ٢٥ مليون نسمة، وسوريا من ٢٠ مليون نسمة...

الأصل في الوطن العربيِّ هو توزُّعُهُ على أربعة أقاليم كبرى هي الشَّام (سوريا الكبرى)، والجزيرة العربيَّة (الحجاز أو الخليج العربي)، ووادي النِّيل (مصر والسُّودان وبعض القرن الإفريقي)، والمغرب (المغرب العربي من ليبيا إلى الأطلسي). وتوزع السُّكان بَيْنَ هذه الأقاليم توزُّعٌ متكافئٌ إلى حدٍّ بعيدٍ.

ما تجدر ملاحظته هنا هو أنَّ اللعبة الاستعماريَّة حَكَمَتْ توزيع عدد سكَّان الوطن العربيِّ هذا التَّوزيع اللامتكافئ أو العشوائي المتفاوت تفاوتاً كبيراً من أجل

تحقيق عدَّة أغراض دفعةً واحدة. أبرزها خلق صراع أدوارٍ غيرِ متكافئٍ مع الإمكانات وعدد السُّكَّان، وإدخال المنطقة في دوّامة صراعٍ لا ينتهي بَيْنَ فرقٍ متفاوتة الإمكانات والقدرات وعدد السُّكَّان بشدَّة، إذ يجب أن تجلس هذه الدُّول إلى جانب بعضها بنديَّة وأدوارٍ متساويةٍ بزعم السِّيادة والاستقلال التَّساوي أمام منطق القانون الدُّوليِّ. وهذه مسألة تستحقُّ الوقوف عندها مليًّا من زوايا متعدِّدة.

وعلى أيِّ حال فأنْ لا يكون عدد السُّكَّان مؤشِّراً أكيداً أو ضروريًّا على الفعل الحضاري للأمَّة فإنَّهُ لا ينفي أنَّ عدد السُّكَّان ينطوي على الكثيرِ من المؤشِّرات الأخرى لهذا الفعل الحضاريِّ، خاصَّةً إذا ارتبط بالمؤشِّرات الأخرى مثل الإمكانات الماديَّة والثَّروات والمساحة الجغرافيَّة وغيرها، ناهيك فوق ذلك عن المسؤوليَّات المترتِّبة على الحكومات العربيَّة.

من ناحية المساحة يشكِّل الوطنُ العربيُّ بجملته أكبرَ مساحةٍ جغرافيَّةٍ لأمَّةٍ واحدةٍ في الأرض، بعدما كان الاتِّحاد السُّوفيتي يحتلُّ هذه المرتبة قبل تفكُّكه من دون أن يكون أمَّةً واحدةً أو على الأقلِّ قوميَّةً واحدةً، وفي هذا وحده ما يجعل من التَّقصير العربيِّ في الفعل الحضاريِّ دلالةً على مدى التردِّي الذي هو فيه والتَّقصير في السَّعي. فإذا ما أضفنا إلى ذلك الطَّبيعة الجغرافيَّة والخصائص البيئيَّة للوطن العربي من جهةِ الاستقرار الطَّبيعي والاعتدال المناخي وتوزُّع الأرض حول خطِّ الاستواء بما يؤمِّن أفضل الظُّروف البيئيَّة للحياة... خلاف الدُّول الكبرى في المساحة الجغرافيَّة مثل روسيا التي تأكل الثُّلوج دائماً أجزاء كبيرةً من مساحتها، والولايات المتحدة وكندا التي تعاني دائماً من كوارث طبيعيَّة؛ زلازل وأعاصير... لأمكننا أن نستنتج أنَّهُ من المفترض أن تكون فرص الفاعليَّة البشريَّة في العديد من المجالات أكبر بكثيرٍ من غيرها من الأمم التي تكافؤها في المساحة وعدد السُّكان.

ستعظم مشكلتنا أكثر إذا ما علمنا أنَّ الوطن العربي يقوم على أرض تحتوي نسباً متميِّزةً وعاليةً جدًّا من مخزون الأرض من الثَّروات الطَّبيعيَّة المختلفة من المعادن

والمواد الخام وعلى رأسها جميعاً النّفط الذي يمكن القول إنّهُ أكثر هذه المواد الخام أهميَّة، ويحتل المخزون العربي منه أعلى نسبة وأعلى احتياطيٍّ في العالم... هنا سنقول من دون أيِّ تردُّدٍ إنَّ تردّي الأداء العربي في أسوأ ما يكون من حال بل أسوا ما يمكن أن يكون.

بعد هذه الحقائق تصبح قراءة موقع العرب على الخريطة الدُّوليَّة أكثر وضوحاً، وأكثر دلالةً. وهذا ما سنبينه باختصار من خلال الحقائق التالية.

ثالثاً: الإنتاج المعرفي والعلمي

إذا نظرنا في إحصاءات النّشر خلال السَّنوات العشر الأخيرة المنصرمة وجدنا أنَّ العرب كانوا دائماً يحتلُّون المرتبة الأخيرة بَيْنَ دول العالم في عدد المطبوعات من الكتب، وكذلك في عدد المنشورات من الصُّحف والمجلات، في حِيْنِ تتقدّمنا دولٌ صغيرةٌ تقلُّ مساحاتها وسكانها وإمكاناتها المادِّية وثرواتها عن الوطن العربي بكثيرٍ من الأضعاف، منها على سبيل المثال كلُّ الدُّول الأوربيَّة.

هذا يقودنا على نحو مباشرٍ إلى جملةٍ من النَّتائج أبرزها وأهمُّها أنَّ الإنتاجَ المعرفيَّ العربيَّ بمجمله يقف في المرتبة الأخيرة بَيْنَ دول العالم، ويعني هذا من جهةٍ ثانيةٍ أنَّ الاستهلاك المعرفي العربي يقف أيضاً في المرتبة الأخيرة بَيْنَ دول العالم. وسيعني هذا أنَّ الفاعليَّة المعرفيَّة؛ إنتاجاً وتلقيّاً هي في أدنى حدود الفعل على الصَّعيد العالمي.

ويتواشج مع الإنتاج المعرفي ويرتبط به الإنتاج العلمي والتَّقاني، فإذا نظرنا إلى هذا النَّمط من الإنتاج في العالم العربي وجدنا أنَّنا نقف أيضاً في الصفِّ الأخير بَيْنَ دول العالم لأنَّ العالم العربي ما زال يعيش مستهلكاً لكلّ احتياجاته العلميَّة والتقانيَّة ولا يصنّع شيئاً منها اللهم إلا الصناعات البسيطة الصَّغيرة التي غالباً ما تكون صناعات استهلاكيَّة تخدم الدُّول الصِّناعيَّة في

احتياجاتها المباشرة وغير المباشرة، أي الصِّناعات التي تستهلكها الدُّول الصِّناعيَّة ولا تجد من اللائق بها أن تقوم بصناعتها، أو الصِّناعات التي توجد الأرضيَّة الكافية والمناسبة لاستهلاك المنتجات الصِّناعيَّة والتِّقانيَّة التي تنتجها الدُّول الصِّناعيَّة وتحتاج إلى تصديرها إلى الوطن العربي.

وإذا نظرنا في تقرير التَّنمية البشريَّة لعام ٢٠٠١م وجدنا في تصنيفاً لدول العالم حسب الإنتاج التقني لم يتغيَّر الكثير في التَّصنيف حتَّى يومنا هذا اللهم إلا فيما لا يخصُّ العالم العربي، وكانت لدينا حسب هذا التَّصنيف خمس فئات هي: «القادة، والقادة المحتملون، والنَّشطون، والمهمَّشون، والآخرون. الدُّول القادة بلغت ١٨ دولةً من بينها الكيان الصهيوني، وليس بينها دولةٌ عربيَّةٌ أو إسلاميَّةٌ، والقادة المحتملون ١٨ دولة من بينها ماليزيا، والنَّشطون ٣٦ دولة من بينها مصر والهند وإيران وإندونيسيا وتونس وسوريا والجزائر، والمهمَّشون ٩ دول من بينها باكستان والسُّودان، وأمَّا باقي الدُّول العربيَّة الأخرى بما فيها الدُّول ذات التَّنمية البشريَّة المرتفعة فهي ليست ذات شأن في الإنجاز التقني»[٣٧].

ومما يرتبط بهذا الأمر التَّعامل مع الكفاءات العلميَّة، ففي حِيْن أنَّ دول العالم معظمها تضع الخطط والبرامج لاستقدام الكفاءات العلميَّة نجد أنَّ الوطن العربي يمثِّل أحد أبرز الدُّول المصدِّرة للكفاءات العلميَّة، ومن ذلك على سبيل المثال وضع وزير الاتصالات الاسترالي **رتشارد آلستون** «خطَّةً لتشجيع استقدام الكفاءات العلميَّة وتخفيف القيود المفروضة على استقدامها»[٣٨]. والولايات المتحدة ذاتها تشجع استقدام الكفاءات، وقد أقرَّ المجلس القومي للعلوم في الولايات المتحدة «أن نسبةً متنامية من العلماء والمهندسين العاملين في الولايات المتَّحدة جاءت من دول

---

٣٧ ــ تقرير التنمية البشرية عام ٢٠٠١م.

٣٨ ــ أسوشيتد برس: **في خطة لتعزيز تكنولوجيا المعلومات؛ أستراليا تخفف القيود على هجرة خبراء الكمبيوتر** ــ نقلا عن **الجزيرة نت** ــ الاثنين ١٤٢١/١٠/٢٧هـ الموافق ٢٠٠١/١/٢٢م.

أخرى»[٣٩]. وهذا ما مثّل عامل قلقٍ حدا بهم إلى التّحفيز على وضع خطط لصناعة الكفاءات المحليَّة.

وكذلك دول الاتحاد الأوربي عامَّة تسير في طريق تشجيع استقدام الكفاءات من دول العالم، لكي تضاهي أمريكا واليابان، وقد «قالت اللجنة الأوروبية يوم الجمعة ٢٠٠٣/٧/١٨م إنَّ الاتحاد الأوروبي يحتاج إلى ٧٠٠ ألف باحث كي يضاهي الإبداعات الأمريكيَّة واليابانيَّة»[٤٠].

وإذا كانت دول الاتحاد الأوربي تمارس ذلك بوصفه استراتيجيا جماعيَّة لدول الاتحاد فإنَّ دول الاتحاد تسعى كلٌّ على حدة منذ سنوات لاستقطاب الكفاءات العلميَّة من دول العالم، ومن ذلك مثلاً أنَّ مجلة Der Spiegel الألمانيَّة نشرت مقالاً عن أولويات الحكومة الألمانيَّة لعام ٢٠٠١م قالت فيه: «إنَّ أولويات ألمانيا اليوم في استراتيجيتها الجديدة تكمن في الحفاظ على الكفاءات والمواهب الموجودة لديها، وتمكينها من التَّطوُّر والانفتاح نحو العالم وكذلك العمل على اصطياد العقول في العالم واستيعابها داخل المجتمع الألماني»[٤١].

وحتَّى اليابان ذاتها التي تتمتع بأعلى نسبة من العلماء بَيْنَ دول العالم[٤٢] تسعى لاستقدام الكفاءات العلميَّة وتيسير شروط استقدام هذه الكفاءات فقد «قالت صحيفةٌ متخصِّصةٌ إنَّ اليابان قد تخفِّف من قيود الهجرة المفروضة على دخول خبراء تكنولوجيا المعلومات الأجانب إلى البلاد وذلك في إطار مساعيها لأن تصبح أكبر بلد

---

٣٩ ــ وكالات: **أميركا تعتمد على علماء أجانب** ــ نقلا عن **الجزيرة نت** ــ الخميس ١٤٢٤/٩/٢٥هـ الموافق ٢٠٠٣/١١/٢٠م.

٤٠ ــ رويترز: **أوروبا تحتاج ٧٠٠ ألف باحث** ــ نقلا عن **الجزيرة نت** ــ السبت ١٤٢٤/٥/٢٠هـ الموافق ٢٠٠٣/٧/١٩م.

٤١ ــ الدكتور فواز أسعد: **ما هو واقع البحث العلمي وكيف نريده أن يكون؟!**.. جريدة تشرين ــ دمشق ــ عدد الثلاثاء ٢٢ آذار ٢٠٠٥م.

٤٢ ــ في اليابان أعلى نسبة من العلماء وليس أعلى عدد.

في العالم في هذا المجال»[٤٣]. وربّما بسبب الخصوصيّة الثّقافية اليابانيّة كان ثَمَّةَ من يتحفّظ على ذلك وقد «قالت صحفية نيهون كيزاي شيمبون إنّ الحزب الدّيمقراطي الليبرالي، المهيمن على الائتلاف الحاكم، يريد أن تسير اليابان على خطى غيرها من الأقطار الصّناعية التي فتحت أسواق العمل فيها أمام خبراء تكنولوجيا المعلومات كالمبرمجين ومهندسي النظم»[٤٤]. وعلى الرّغْمِ من هذا التّحفظ الذي يبدو غامضاً فقد نقلت وكالات الأنباء «إنّ رئيس الوزراء **يوشيرو موري** جعل من تكنولوجيا المعلومات موضوعاً رئيساً في سياسته. وذكر أنّهُ يخطّط لاستقدام ٣٠ ألف أجنبي ممن لهم خبرة في تكنولوجيا المعلومات بحلول عام ٢٠٠٥م»[٤٥].

في ظلّ هذه الممارسات من بلدان تعجُّ بالكفاءات العلميّة تجد أنّ الكفاءات العربيّة تهاجر بأعدادٍ كبيرةٍ حتّى يكاد يقف الوطن العربيُّ في طليعة الدُّول المصدِّرة للكفاءات العلميّة من خلال سوء التّعامل مع هذا الكفاءات وعدم تقديرها وإساءة معاملتها.

من الواضح هنا أنّ الممارسة الواقعيّة في التّعامل مع الكفاءات العمليّة هي ممارسةٌ عكسيّةٌ على الأقلّ من وجهة نظرنا في العالم العربيّ، ففي حِيْنِ أنّ الدُّول المليئة بالكفاءات تقوم باستقدام المزيد منها من الدُّول الأخرى بتشجيعاتٍ كبيرةٍ فإنّ الدول التي هي في أمسّ الحاجة إلى الكفاءات العلميّة تقوم بنبذها وطردها بممارساتها الخاطئة تجاهها، وربّما يمكن هنا الإشارة إلى ما تخصّصه دول العالم للبحث العلميّ بوصف ذلك أحد عوامل التّشجيع أو التّنفير للكفاءات العلميّة من جهة، وبوصف ذلك مؤشّراً على أسباب تدنّي الفاعليّة في الإنتاج المعرفيّ والعلميّ. ففي حين «ينفق الكيان

---

٤٣ ــ وكالات: **اليابان تخفف شروط هجرة خبراء المعلومات إليها** ــ نقلاً عن **الجزيرة نت** ــ الأربعاء ١٤٢١/١٠/١٥هـ ــ الموافق ٢٠٠١/١/١٠م.

٤٤ ــ م. س ــ ذاته.

٤٥ ــ م. س ــ ذاته.

الصهيوني على البحث العلمي ٢,٤% من النّاتج القومي الإجمالي على البحث العلمي نجد أنّ إنفاق أكثر بلدٍ عربيٍّ على البحث العلمي لا يتجاوز نسبة الإنفاق فيه ٠,٦% بل إن معظم الدُّول العربيَّة لا تظهر لديها أرقام وإحصاءات عن البحث العلمي (الإمارات: ٠,٦ % الكويت: ٠,٢% الأردن: ٠,٣% تونس: ٠,٣% سورية: ٠,٢% مصر: ٠,٢%)»[٤٦]. ولذلك لا عجب في أنّ يسجّل الوطن العربيُّ أدنى النسب، ربَّما في العالم كلّه، في عدد براءات الاختراع المسجَّلة، ففي حين أن «منظمة التّعاون والإنماء الاقتصادي سجلت ٣٥٤ براءة اختراع لكلّ مليون من عدد سكانها، ودول وسط أوروبا وشرقها ورابطة الدُّول المستقلّة سجّلت ٥٤براءة اختراع لكلّ مليون، وأمريكا الشّماليّة سجّلت براءتي اختراع لكلّ مليون من عدد السُّكان، لم نجد رقماً أبداً عند أيّ دولة عربيَّة ولا عند المجموعة العربيَّة بمجملها، وكأنّ النّتيجة هي صفر فقط»[٤٧].

هذا كلُّه في المحصّلة مؤشّرات لا مؤشّرٌ واحدٌ على أنّ الحالة أكثر مأساويَّة على صعيد الإنتاج المعرفيّ والعلميّ والجهود المبذولة للبحث العلميّ، بل إنّ الأكثر خطورةً في الأمر ليس التّدنّي الكبير جدًّا في مخصّصات البحث العلميّ في العالم العربيّ إذا ما قورنت مع دول العالم الأخرى معظمها بل في التّعامل مع الكفاءات العلميَّة العربيَّة على نحوٍ تهميشيٍّ نابذٍ على الرَّغْم من حاجتنا الماسَّة إليهم، في حين أنّ الدُّول المتخمة بالكفاءات العلميَّة تبذل الكثير من الجهود والتّسهيلات لاستقدام الكفاءات.

رابعاً: في العملية الاقتصاديَّة

مشكلاتٌ كثيرةٌ تستحقُّ الإشارة إليها هنا منها العلاقات التّجاريَّة العربيَّة البينيّة، وما يمثله العرب في الميزان التّجاري الدُّولي، وطبيعة الصّادرات والواردات وغير ذلك كثير، ولكن حسبنا أن نشير هنا إلى ما يختصرُ كثيراً من الكلام وهو ما كشف

---

٤٦ ــ تقرير التنمية البشرية عام ٢٠٠١م.

٤٧ ــ تقرير التنمية البشرية عام ٢٠٠٣م.

عنه تقرير التّنمية البشريّة عام ٢٠٠٠م الذي بين أنّ النّاتج المحلّي الإجمالي لكلّ الدُّول العربيّة و هي ٢٢ دولة بلغ في سنة ٩٩ (٥٣١) مليار دولار أمريكي فقط بما فيه النّفط الذي يمثل نحو ٧٠%. ولكن في الوقت ذاته ومن طرف آخر نجد أنّ أقلّ دولة أوروبيّة في ناتجها المحلي وهي إسبانيا تفوق الدّخل القومي العربيّ كلّهُ مجتمعاً إذ بلغ النّاتج القومي الإسباني ٥٩٥.٥ مليار دولار وهي التي لا يزيد عدد سكانها عن ٤٠ مليون نسمة، فيما كان عدد سكّان الوطن العربي ٢٨٠ مليون، وفي الوقت ذاته لا تعدُّ إسبانيا من الدُّول المتقدّمة كثيراً في الغرب.

وفي حين أنّ إسبانيا لا تحتلّ مكاناً متقدّماً بَيْنَ الدُّول الأوربيّة نجد أنّ النّاتج القوميّ الإجماليّ للدُّول الأوربيّة الإحدى عشر المنتمية لاتفاقات اليورو تمثّل مجتمعةً ٨٠% من النّاتج الوطني الإجماليّ الأمريكي[٤٨]. فكم يمثّل مجمل النّاتج القوميّ العربيّ من النّاتج القوميّ الأمريكيّ؟ لعلّهُ من الطّرافة بمكان أن نعلم أنّ أحد أساتذة شركة M I T في الولايات المتّحدة الأمريكيّة «أسّس شركات كان إنتاجها ٦٠٠ مليار دولار سنوي، أي ما يعادل النّاتج القوميّ الإجماليّ للوطن العربي كلّه»[٤٩]. فهل يكفينا ذلك لمعرفة ما يمثّلهُ النّاتجُ القوميُّ العربيُّ من مجمل النّاتج القوميّ الأمريكيّ؟

لا شكّ في أنّنا أمام مأساةٍ حديدةٍ لأنّنا نعلم من معطيات تقارير التّنمية البشريّة المتتالية أنّ الولايات المتّحدة وأوروبا واليابان وحدها تساهم بأكثر من ثمانين بالمئة من مجموع الصّادرات العالميّة، وبقيّة دول العالم ومنها الدُّول العربيّة تساهم بنحوٍ من عشرين بالمئة من الصّادرات العالميّة. فإذا ما علمنا أنّ نمور آسيا وحدها تساهم بالنّسبة الأكبر من هذه العشرين بالمئة فكم سيبقى للدُّول العربيّة مجتمعةً وحدها من جهة ومع بقيّة دول العالم الأخرى من جهةٍ ثانيةٍ؟

---

٤٨ ــ تقرير التنمية البشرية عام ٢٠٠٠م.

٤٩ ــ الدكتور فواز أسعد: **ما هو واقع البحث العلمي وكيف نريده أن يكون؟!..** جريدة تشرين ــ دمشق ــ عدد الثلاثاء ٢٢ آذار ٢٠٠٥م.

ولذلك لا عجب في أن نجد أنّ موقع العالم العربيّ من ناحية البنية الاقتصاديّة موقعاً يدعو للأسى والحسرة والأسف، وكي تتضح الصُّورةُ أكثر سنعرض باختصار لواقع دول العالم على خريطة التَّصنيف من جهة البنية الاقتصاديَّة، إذ وُزِّعت دول العالم، على خمسة أصناف هي على النَّحو التَّالي[٥٠]:

أولاً: دول مبتكرة للتَّقانة؛ مستويات عالية لبراءات الاختراع. وكانت الدُّول المندرجة تحت هذا الصنف هي الشَّمالُ الأمريكيُّ؛ الولايات المتحدة وكندا، والشَّاطئ الغربي من أوربا أو أوروبا الغربيَّة باستثناء إسبانيا، وأستراليا، واليابان.

ثانياً: دولٌ مُصَنِّعةٌ مصدِّرة. والدُّول المدرجة تحت هذا الصنف هي البرازيل والمكسيك وتركيا وشرق آسيا وبعض جزر المحيط الهندي، ومن الدُّول العربية كانت تونس[٥١] والمغرب[٥٢] فقط.

ثالثاً: بلدان انتقاليَّة. وهي حصراً حسب التَّصنيف دول أوروبا الشَّرقيَّة أو ما كان يسمَّى بلدان المنظومة الاشتراكيَّة.

رابعاً: دول مصدِّرة للوقود (النفط والغاز). هنا تكاد تكون الدُّول العربيَّة وحدها هي التي تندرج تحت هذا الصِّنف. إذ نجد دول الخليج العربيِّ، وكذلك ليبيا والجزائر. ومع العرب نجد إيران وفنزويلا وثلاث دول على السَّاحل الشَّرقي لأفريقيا الجنوبيَّة هي نيجيريا وأنغولا والغابون.

خامساً: دول مصدِّرة للمواد الخام غير الوقود. وهنا تندرج بقية الدول العربيَّة التي هي كلُّ دول الطَّرف الغربيِّ من البحر لأحمر؛ مصر والسودان والقرن الأفريقي. ثُمَّ الأردن وسوريا ولبنان واليمن. وإلى جانب الدُّول العربيَّة نجد أفغانستان

---

٥٠ ــ تقرير التنمية البشرية عام ٢٠٠٣م.

٥١ ــ ينبغي أن نذكر هنا أنّ الأسواق الأمريكيَّة خاصَّة والأوربية أيضاً مفتوحة على مصراعيها لكلّ الصناعات التونسيَّة من دون أيّ ضوابط من الحماية الجمركيَّة.

٥٢ ــ المغرب من أبرز الدول وأهمها في صناعة الصيد البحري وتحتل مكانة متميزة على الصعيد العالمي.

وبقيّة دول أفريقيا كلّها، وبقيّة دول أمريكا اللاتينيّة وهي دول الشّاطئ الغربي من القارّة.

وفي هذا السّياق من الضّروري أن نشير إلى أنّ « النّفط يشكّل ٧٠% من الصّادرات العربيّة، وكان نمو الصّادرات بنسبة ١.٥% وهي أقلُّ كثيراً من المعدل العالمي (٦%) وبقيت الصّادرات المصنعة راكدة، ويقلُّ دخل ٢٠% من السُّكان عن دولارين يومياً»[٥٣].

هذا التّموضع للدُّول العربيَّة على الخريطة الدُّوليَّة من ناحية البنية الاقتصاديَّة لا يدعو إلى الفخر أبداً، بل يدعو إلى كلّ أسى وأسفٍ وحسرةٍ لأنَّهُ تموضع غير مُشَرِّفٍ بأيِّ حالٍ من الأحوال، لأنَّهُ يوحي لنا بصورٍ مَسْخِيَّةٍ للعالم العربيِّ أكثرها تهذيباً هي أنّنا نشبه العاطل عن العمل الذي يبيع أثاث بيته رويداً رويداً ليأكل ويستمتع حتّى لم يبق عنده ما يبيعه فراح يبيع أبواب البيت ونوافذه وأحجاره!!

البطالة هي إحدى أبرز الانعكاسات الخطيرة الكثيرة النّاجمة عن هذا الوضع بحقائقه المشار إليها، على الرَّغْمِ من أنّ الافتراض النّظري يقول بأنّ العالم المتقدِّم هو الذي ينبغي أن يحتوي النِّسب الأعلى من البطالة لأنّها تقوم على اقتصادات تقانيَّة متطورة جدًّا وتستغني عن العدد الأكبر من الأيدي العاملة خلاف الدُّول المتخلّفة التي تحتاج أكثر إلى الأيدي العاملة.

على الرَّغْمِ من ذلك فقد احتلَّ الوطنُ العربيُّ المركز الأوَّل في أعلى نسبة بطالةٍ في العالم على مدار السّنوات الأخيرة المنصرمة فبلغ «متوسّط نسبة البطالة في البلدان العربيَّة ١٥% وهي من أعلى النِّسب في العالم»[٥٤]. وهذا ما يُرَتِّب على الحكومات العربيَّة أعباءً كثيرةً وضغوطاً اجتماعيَّةً واقتصاديَّةً، ويلعب دوراً كبيراً في إعاقة النُّمو الاقتصاديِّ والاجتماعيِّ وعرقلة المشاريع الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة والخدماتيَّة للمجتمع.

---

٥٣ ــ تقرير التنمية البشرية عام ٢٠٠٢م.

٥٤ ــ تقرير التنمية البشرية عام ٢٠٠٢م.

ويتضافر مع ذلك كلّه مديونيّةٌ آخذةٌ في التّزايد رويداً رويداً وحسبنا أن نشير إلى بعض الأرقام التي تطلعنا عليها بعض الصُّحف والمجلات العربيّة وسنركّز على العجز في ميزانيات الدُّول العربيّة الثّريّة خاصّةً لأنّ الدُّول الفقيرة تغرق في الدّيون والعجز منذ زمنٍ بعيدٍ إذ بلغت «ديون هذه الدُّول في عام ١٩٨٨م نحو (١٤٠) مليار [= بليون] دولار»[٥٥] ـــ ومن ذلك على سبيل المثال أنّ الكويت حتّى منتصف عام ١٩٩٨م كانت تقع في عجز قدره (٦) مليارات دولار[٥٦]، وحتّى الفترة ذاتها كانت السُّعوديّة، حسب التّقديرات الرّسميّة، تقع في عجزٍ قدره (١٠) مليارات دولار[٥٧]. ونقرأ في خبر رسميٍّ المصدر أيضاً أنّ دول الخليج العربيّ تقع في عجز مقداره (٢٠) مليار دولار[٥٨]. وفي مطالع عام ١٩٩٨م قرأنا خبراً يقول إنّ الدّيون العربيّة تزيد (٥٠) ألف دولار في الدّقيقة[٥٩]. أي، ومن دون خدمات الديون، أي تراكمات الفائدة فقط، نحو مليار ومئة مليون دولار سنوياً، وعلى هذا الأساس كان من المتوقّع أن تبلغ الدّيون العربيّة، من دون الطّفرات والطّوارئ، في عام ٢٠٠٠م نحو (٢٦٢) مليار دولار[٦٠]، ولكنّها في حقيقة الأمر زادت عليه بنحو الضعف بلغ نصيب السعودية وحدها من هذه الديون، كما أعلن وزير الماليّة السُّعودي في تقرير عرض الميزانيّة عام ٢٠٠١م أنّ الدَّيْنَ السُّعودي قَدْ بلغ للعام الثاني (٦٠٠) مليار ريالٍ سعوديٍّ أي ما

---

٥٥ ـــ د. عدنان مصطفى: **أزمة البحث العلمي ...** ـــ ص٩.

٥٦ ـــ جريدة؛ **الميزان** ـــ عدد أيلول/ سبتمبر ١٩٩٨م.

٥٧ ـــ جريدة؛ **الميزان** ـــ عدد آب/ أغسطس ١٩٩٨م.

٥٨ ـــ جريدة؛ **أخبار اليوم** ـــ السبت ٢٣ كانون الثاني ١٩٩٩م.

٥٩ ـــ جريدة؛ **تشرين** ـــ الأحد ١١/ ١/ ١٩٩٨م، العدد ٧٠٠٧.

٦٠ ـــ م. س ت ذاته.

يعادل (١٧٠) مليار دولار، وبلغت الدّيون العربيّة حسب التّقارير الرّسميّة نحو «(٤١٠) مليار دولار»[٦١]، وقيمة خدمة الدّيون العربيّة أكثر من (١٥١.٤) مليار دولار[٦٢].

خامساً: في الموقع السياسي

بعد استعراض هذه المواقع التي يصعب انتقاء لفظٍ لطيفٍ يصفها سيصعب جدًّا توقُّع موقعٍ حسنٍ أو مقبول للعالم العربيِّ على خريطة الفعل السِّياسي الدُّوليَّة.

رُبَّما يصحُّ القول إنَّ جزءاً أساسيًّا ومحوريًّا من تدني مواقع العرب على مختلف الأصعدة السَّابقة مرتبطٌ بانعدام إرادة الفعل أكثر من ارتباطه بانعدام الإمكانات والقدرات، ليصدق على العالم العربيِّ اليوم قول شاعر العرب **أبي الطيب المتنبي**: «من يهن يسهل الهوان عليه». ولا يبتعد الموقعُ السِّياسيُّ العربي عن هذا الحال والتَّوصيف.

لقد اختار العرب خيار **السَّادات** الذي كان منطلقاً منه من قَبْلِ وراثته عرش **عبد الناصر** وهو أنَّ أوراق اللعب كلَّها بيد الولايات المتحدة الأمريكيَّة، وما على العرب إلا تسليم قياد أمورهم وخياراتهم ومواقفهم لصاحبة الجلالة الولايات المتحدة الأمريكيَّة. ومن هذا المنطلق كانت زيارته للكيان الصهيوني التي كانت مفاجئةً للعالم العربيِّ خاصَّةً والعالم عامَّةً في صورتها التي بدت عليها، والتي أدَّت إلى تحييد مصر عن ساحة الصِّراع من أجل استرداد الحقِّ العربيِّ وتحويل مصر حَتَّى لاحقاً بعد عودتها إلى الصفِّ العربيِّ من دولةٍ شقيقةٍ إلى دولة جارةٍ أو صديقةٍ.

---

٦١ ــ أحمد الخشن: **العرب والقرن الواحد والعشرون** ــ ضمن جريد؛ **الاتحاد** ــ أبو ظبي ــ العدد ٨٩٧٧ ــ في ٢/٢/ ٢٠٠٠م ــ ص٧.

٦٢ ــ التقرير الاقتصادي العربي، نقلاً عن جريدة؛ **الاتّحاد** ــ أبو ظبي ــ العدد ٨٩٥٤ ــ الاثنين ١٠ كانون الثاني /يناير ٢٠٠٠م.

السَّلام الذي عقده **السادات** مع الكيان الصّهيوني لم يكن إخراجاً لمصر من ساحة الصِّراع وحسب فهذا أمر يمكنُ احتمالُه إلى حدٍّ ما، ولكِنَّهُ كان الضَّربة القاصمة للظَّهر العربيِّ من خلال التّداعيات اللاحقة على السَّاحة السِّياسيَّة والفكريَّة إذ بها بدأ عزل الفلسطينيين وتحويل قضيتهم من قضيةٍ عربيَّةٍ إلى قضيَّةٍ فلسطينيَّةٍ فقط. وراحت الدُّول العربيَّة رويداً رويداً تتعامل على أساس هذه الواقع الجديد وتتهالك على إقامة علاقاتٍ مع الكيان الصّهيوني اعتماداً على أنَّ القضيَّة الفلسطينيَّةَ فلسطينيَّةٌ وحسب. وبدأت في الوقت ذاته تستشري فكرةُ أنَّ أوراق اللعب كلُّها بيد الولايات المتحدة الأمريكيَّة، وظهر ذلك جليًّا إثر انهيار الاتحاد السُّوفيتي.

1991

لم يكن انهيار الاتِّحاد السُّوفيتي هو المسوِّغُ للإيمان بأنَّ الولايات المتَّحدة هي التي تملك مفاتيح اللعب وأوراقه فالحقائق التي انكشفت تُبَيِّنُ أنَّ بضعَ دولٍ عربيَّةٍ كانت منذ زمنٍ بعيدٍ تتعامل وَفْقَ هذا الإيمان. ومع انهيار الاتحاد السُّوفيتي تكاثر هذا الإيمان تكاثراً انشطاريًّا في العالم العربي حَتَّى صار من شبه المتعذِّر أن تجدَ أكثر من دولةٍ أو اثنتين لا تؤمنان بهذا المبدأ.

العالم الرَّسميُّ العربيُّ معظمه يتحرَّك في إطار أنَّ الولايات المتحدة هي «الرَّبُّ الأعلى الذي يقول للشَّيء كن فيكون». وأنَّهُ من العبث والحمق والجنون محض محاولة اتِّخاذ موقفٍ أو قرارٍ أو سلوكٍ أو فعلٍ لا تقبل به الولايات المتحدة أو لا تريده. وأنَّهُ من الخطأ والخطل الخروج من دائرة التَّفكير الأمريكيِّ والإرادة الأمريكيَّة. وعلى هذا الأساس تتصرَّف الحكومات العربيَّة جلها، ولذلك كانت الولايات المتحدة الأمريكيَّةُ عضواً مشاركاً في كلِّ مؤتمرات الجامعة العربيَّة من القمَّة إلى أدنى مستويات المؤتمرات، بل من الخطأ القول إنَّها عضوٌ مشاركٌ لأنَّ الحقيقة تقول إنَّها صائغُ قرارات مؤتمرات الجامعة العربيَّة وكذلك بياناتها، وقد كشف الرَّئيس **القذافي** عن ذلك علناً في لقاء أجرته معه قناة الجزيرة، وعلَّق بأنَّ البيان الختامي جاءهم باللغة الإنجليزيةِّ و لم تتكلَّف الولايات المتحدة عناء ترجمة البيان. ومثل هذا ما كشفت عنه معظم وسائل الإعلام

في قمة تونس ٢٠٠٤م، وصار، للأسف، من المألوف غير المستهجن أن نسمع قبل كلّ قمةٍ عربيّةٍ أنّ البيان الختامي وورقة أعمال القمة قد وضعتها الإدارة الأمريكيّة وأرسلتها إلى الزُّعماء غير مترجمةٍ إلى العربيّة.

إذن نقطتان أساسيتان حتّى الآن هما أبرز معالم الموقع السِّياسي العربيِّ على الخريطة العالميّة:

الأولى هي التّهميش الذي اختاره العرب لدورهم في قضاياهم ومشكلاتهم، و هذا يعني أنّهُ من باب أولى أن لا يكون لهم أيّ دورٍ على الإطلاق على صعيد العلاقات والمشكلات والأزمات الدُّوليّة، وهذه حقيقةٌ يتعذّر نكرانها أو دحضها؛ فلاهم قادرون على أيِّ مشاركةٍ من هذا النّوع، ولا هم راغبون، ولا هم يدعون إلى أيِّ مشاركة في ذلك... وكيف يكون لهم مثل ذلك وهم لا يريدون ولا يشاركون في حلِّ مشكلاتهم هم التي علّقوها على كاهل الولايات المتحدة خاصّةً وبعض الدُّول الأوربيّة معها، تاركين لهؤلاء أن يفكّروا عنهم فيما ينفعهم ويضرهم؟؟!!

الثانية هي الاختراق والانتهاك الذي يخضع له العالم العربيُّ من قبل الولايات المتحدة والكيان الصّهيوني على نحوٍ خاصٍّ. ويتمثّل هذا الانتهاك والاختراق في المصادرة على القرار السِّياسي للدُّول العربيّة بمختلف مستوياته وميادينه؛ المشروعات والمخطّطات والعلاقات والقرارات وربّما محاولات التّفكير. والواقع السِّياسيُّ العربيُّ يشهد بذلك شهاداتٍ دامغةً غَيْرُ قابلةٍ للنّقض أو الدّحض. فالولايات المتحدة هي التي تأمر وتنهى وتقرِّر القرارات والزِّيارات واللقاءات... في معظم الدُّول العربيّة، وقد شهدنا في السّنوات الأخيرة الكثير من هذه الشّواهد مثل تقرير منع عقد قمّة عربيّة إلا بشروط أمريكيّة، ومنع زيارات مسؤولين كانت مقرّرةً ومتّفقاً عليها بَيْنَ بعض الدُّول العربيّة، ومن شديد الأسف عند هذه النُّقطة أن نعلم أنّ الدُّول العربيّة هي التي تلتزم بأوامر الإدارة الأمريكيّة في فرض العزلة أو الحصار على دولة عربيّة

أخرى أو أكثر في حِيْنٍ أنّ الدُّول غير العربيَّة حَتَّى الضَّعيفة منها ترفض الانصياع للأوامر الأمريكيَّة في مثل هذا الحصار أو العزلة والأمثلة على ذلك جدٌّ كثيرة منها على سبيل المثال الالتزام العربي المطلق بحصار ليبيا سنواتٍ كثيرةً فيما فَكَّت هذا الحصار كثيرٌ من الدُّول الإفريقيَّة وغيرها. ومثل ذلك ما حدث في حصار العراق طيلة عقد التِّسعينيات، أي قبل احتلالها. ومثل ذلك ما كان في انقطاع زيارات المسؤولين العرب لسوريا تنفيذاً للتعليمات الأمريكيَّة[٦٣] في حين أنَّ تركيا رفضت إلغاء الزِّيارة المقرَّرة لرئيس الجمهورية **أحمد نجدت سيزر** إلى دمشق[٦٤]. وعلى الرَّغْمِ من استمرار الضُّغوط زار دمشق في الأربعاء الثالث عشر من نيسان ٢٠٠٥م حَتَّى علَّقت بعض وسائل الإعلام بأنَّ هذه الزِّيارة إيذانٌ بالطَّلاق التُّركيِّ الأمريكيِّ. ومثل ذلك تماماً ورُبَّمَا أشدُّ منه هو ما حدث بعد تمام السَّنة من هذا الحدث، بعدما فازت حركة حماس في الانتخابات الفلسطينيَّة وشكَّلت الحكومة، فقد حوصرت حماس والشَّعبُ الفلسطينيُّ حصاراً خانقاً قاتلاً، وكان العرب من أوائل المحاصرين، ومن أطرف ما حدث هو رفض مصر[٦٥] ثُمَّ الأردن استقبال

---

٦٣ ــ ألغت بعض الدول العربيَّة الزيارات التي كانت مقررة لسوريا مثلما فعل وزير الخارجية الأردني في يوم الجمعة ١٨ شباط ٢٠٠٥م. بعد أقل من ٢٤ ساعة على إعلانه زيارة دمشق. وقد أشارت الصحف الأردنية ووسائل الإعلام العالمية كلها أن ذلك كان تلبية للرغبة الأمريكيَّة التي أعلنت عدم تحبيذها هذه الزيارة لأنَّها تريد عزل سوريا وحصارها...

٦٤ ــ منذ أواخر شباط ٢٠٠٥م وحَتَّى الآن (أواخر آذار ٢٠٠٥م) والعلاقات متوترة بَيْنَ تركيا والولايات المتحدة بسبب رفض تركيا الأوامر الأمريكية بعدم القيام بالزيارة، وبسبب هذه الضغوط ازدادت نسبة كره الأتراك للولايات المتحدة، ووصل الأمر إلى استقالة السفير الأمريكي في تركيا في منتصف آذار ٢٠٠٥م.

٦٥ ــ ذهب الدكتور الزهار إلى مصر فرفض وزير الخارجية استقباله بزعم أنَّهُ كان مشغولاً، و لم ندر بماذا كان مشغولاً، ولكن الجميع فهم أنَّ السبب هو الخضوع للتَّعليمات الأمريكية الإسرائيلية.

وفود الحكومة الفلسطينيَّة[٦٦] وبعد أيّامٍ من ذلك يجتمع الـرَّئيس **حسـني مبـارك** والملك **عبد الله الثاني**[٦٧] ليعلنا، بعد رفضهما أيَّ لقاء مع حكومـة حمـاس الـتي شرَّفت العرب، أنَّهُمـا يرغبـان، بشـدَّةٍ، في التَّعامـل مـع رئـيس الحكومـة الصُّهيونيَّة الجديد **إيهـود أولمـرت** الـذي يتـابع مسلسـل إبـادة الفسـطينيين واحتقار العرب.

ومن أبرز معالم انتهاك السِّيادة العربيَّة واختراقها إلزام الدُّول العربيَّة معظمها في أن تكون ما يشبه النَّاطق الرسمي للإدارة الأمريكيَّة في تصعيد الأزمة على العراق قبل الحرب، ومثل هذا الدَّور تماماً راحت تلعبه الدُّول العربيَّة في الآونة الأخيرة من تصعيد الضُّغوط على سوريا ولبنان لإخراج سوريا من لبنان وتجريد المقاومة اللبنانيَّـة مـن السِّلاح. في حيْن أنَّ دولةً عربيَّة من هذه الدُّول لم تجرؤ على محاولة طلـب خـروج الاحتلال الأمريكي من العراق.

مشكلتنا في تردّي الأداء السِّياسيِّ العربيِّ لا في ضعفه وتقهقهره على الصَّـعيد العالميِّ وعدم القيام بأيِّ دورٍ في رسم الخريطة السِّياسيَّة العالميَّـة وإنَّمـا في الـرُّوح الانهزاميَّة التي تمارسها الدُّول العربيَّة ضد ذاتها... تلكـم هـي المشـكلة العويصـة المستعصية على الفهم والحلّ!!

---

٦٦ ــ كان من المقرر حسب الاتفاق، رُبَّما بالإحراج، أن يذهب وزير الخارجية الفلسـطيني الـدكتور... الزهار إلى الأردن في العشرين من نيسان، ولكن في الثامن عشر من الشهر أعلنت الحكومة الأردنية أنَّها اكتشفت شبكة تخريب من حماس تهرب الأسلحة إلى الأردن للقيام بعمليات تفجير في الأردن، وكـأن حماس أوقفت عملياتها ضد الاحتلال الصهيوني لتنقل نشاطها إلى الأردن!!! وهذا ما لم يصدقه أحـد. السبب كان توقعاً هو عدم استقبال الزهار في الأردن، وقد أفصح الزهار بعد أيام أن الأردن ضغط عليه بطلبات متتالية لكي يعلن هو اعتذاره عن زيارة الأردن، وعندما رفض اكتشفت الخلية التخريبية الـتي تقودها حماس، ولأنَّ سوريا ظلت واقفة مع حماس أعلنت المخابرات الأردنية أن الأسلحة تدخل عـن طريق سوريا!!

٦٧ ــ تم هذا اللقاء يوم السبت في ٢٩/٤/ ٢٠٠٦م، ونتيجة اللقاء كانت تلك الرغبة!!!

كثيرٌ من الدُّول آثرت العزلة السِّياسيَّة وعدم ممارسة أيِّ دورٍ كبيرٍ أو صغيرٍ في السِّياسة الدُّوليَّة، ولكنَّ العالم المعاصر كلَّه لم يعرف دولةً أو أمَّة تمارس المازوخيَّة السياسيَّة التي يمارسها العالم العربيُّ وحده دون أمم الأرض ودولها. وهذه هي المعضلة التي تبحث عن الحلِّ، وتبحث عن التَّفسير. فهل سننتظر فهمها وتفسيرها أم نتجاوزها؟ تلكم مشكلةٌ أخرى أكبر منها، إذ السُّؤال المرتبط بها هو: هل يمكن تجاوزها من دون فهمها وتفسيرها أم لا يمكن؟

خاتمة

هذه أبرز معالم موقع العرب على الخريطة الدُّوليَّة، التي نستطيع من خلالها استجلاء الكثير من المعالم الأخرى من دون كثير عناء. فما العمل؟ وكيف يمكن أن نخرج من هذه الدَّائرة؟ وما هي إمكاناتنا على الخروج من هذه الدَّائرة الضَّيقة؟ أسئلة تستحقُّ الإجابة بكلِّ تأكيد.

ولكن السُّؤال الذي يطرح ذاته أو يمكن أن يعترض به بعضهم هنا هو: أليس في هذا التَّوصيف شيءٌ من التَّجنِّي والمبالغة؟ وأضيف إلى هذا السُّؤال سؤالاً آخر هو: ألا يجب أن نأخذ الشَّرط التَّاريخيَّ للفعل الحضاريِّ بعين النَّظر والحسبان؟

في هذا ما يستحق وقفة أخرى ومعالجة خاصَّة.